

القسم الثاني

من فوئال لشعر العربي

obeikandi.com

أنواع النسب والتشبيب

في شعر العرب ^(١)

ربما كان من المستحسن أن نميز في الأسماء والمصطلحات أنواعاً من النسب تختلف في طريقتها وأثرها في النفس وقد لا يوافقني على هذا التقسيم بعض الأدباء ولكنني أراه مما يمنع الخلط في الكلام عن الشعر والشعراء وأراه يسهل تذوق طريقة كل منهم وفهم أسلوبه .

فالنسب في الشعر أقسام فمنه ما كان مصدره العشق ومنه نسب الوجدان من غير عشق خاص ومنه نسب الصوفية ونسب التمثيل أو القصص التمثيلية ومنه نسب المحاكاة والصناعة الزخرفية ومنه النسب المشوب بالمجون وهناك أنواع أخرى بين يين لأنها تجمع بين طريقتين أو أكثر وأبعد أنواع النسب هي ما بعدت في هذا الترتيب وأقربها ما اقتربت فيه وقد يجمع الشاعر بين المتقاربين كما قد يخلط الناقد بينهما في حكمه فقد يخلط الناقد بين نسب العشق ونسب الوجدان لأن الأول جزء من الثاني وهو وجدان متعلق بإنسان جميل وقد يخلط بين نسب الوجدان ونسب التمثيل لأن الشاعر إذا مثل العاطفة في شخصه أو في شخص قصة لا بد أن يكون له من الوجدان الصافي ما يساعد بصيرته الفنية في إتقان ذلك التمثيل ولكن نسب الوجدان هو شعر قد لا يراد به تمثيل العاطفة وإنما قد يأتي من الشاعر عفواً كما يصدح الطائر الغريد فهو قد لا يدل على التعلق بإنسان معين وقد لا يدل على تمثيل العاطفة تمثيلاً يأتي به مزاج مؤلف القصص التمثيلية أو مزاج الفنان الممثل . وقد يخلط الناقد بين نسب الوجدان ونسب الصوفية لأن نسب الصوفية يستمد من الوجدان ولكن الحقيقة أن نسب الصوفية يجمع أخلاقاً كثيرة من الأحاسيس إما في قصيدة واحدة وإما في قصائد مختلفة أو شعراء مختلفين فتراه يستمد من إحساس العبادة وقد يكون جلال المعبود فيه غالباً لجمال المحبوب وقد يكون العكس وقد ترى في بعض غزل الصوفية قدرة الفنان الممثل للعاطفة وقد تراه يستمد من الصناعة الزخرفية وقد تختلط فيه الأفكار وتهوش إذا حاول

الشاعر التوفيق بين أمور الحياة والكون المتناقضة توفيقاً لم ينضجه الفكر المنظم . وقد ترى بعض المجون أو ما يشبه المجون فيه من ذكر محاسن أعضاء الجسم والوصال واللذات واللمى والريق والخمر ويؤول كل ذلك تأويلاً قدسياً والحقيقة المعروفة في علم النفس أن الشهوة الجنسية الخفية قد تجد لها منفذاً بهذه الوسيلة عن طريق التعب . وقد يكون الشاعر الصوفي المسكين صادقاً في تعبده وقد يكون آخر من يفتن إلى حقيقة علم النفس هذه .

وكذلك قد يجتمع شعر المحاكاة والزخارف وشعر المجون من غير أن يخالطهما وجدان أو عبادة صوفية . وقد يخلط الناقد بين نسب المزاك التمثيلية وبين نسب المحاكاة والزخارف لأن الشاعر الذى ينظم النوع الثانى يدعى العاطفة أو يدعى وصفها ولكنه قد تعوزه بصيرة الفنان النافذة إلى أعماق النفوس كما يعوزه الوجدان الرقيق الصافى الذى يساعد البصيرة النفسية (السيكولوجية) فإذا أعوزه الوجدان العميق الصافى وأعوزته البصيرة السيكولوجية كان نسيبه من نوع شعر المحاكاة والزخارف لا من نوع النسيب التمثيلية الذى نراه فى القصص التمثيلية وفيما ينحو منحاهما وفيها من شعر غير القصص التمثيلية وكما نراه فى شعر الشاعر الذى أتيج له مزاج الممثل الذى يمثل العاطفة فتتملكه العاطفة وقت تمثيلها .

وهذه الأقسام التى ميزناها فى شعر النسيب ليست خاصة كل منها بعصر ففى الجاهلية وصدر الإسلام نرى نسيب العشق فى شعر العذريين ونرى نسيب الوجدان إذا لم يتعلق الشاعر بالناسب بإنسان معين وإنما يفيض بوجدانه المتعلق بالجمال ويصدق بحنينه ويغنى بأنغامه ونرى نسيباً يقرب من نسيب الصوفية وإن كان سببه أن فرط الحب أكسب الحب شيئاً من أحاسيس العبادة بينما نرى أن العبادة فى شعر الصوفيين كانت وسيلة لإرضاء عاطفة الحب . ونرى فى ذلك العصر أيضاً شعر النسيب التمثيلية الذى يدل على بصيرة فنية بسيكولوجية تنظم شعراً يمثل نسيب العشق أو نسيب الوجدان المحض اللذين لا يهمهما الفن والصناعة ، ونرى أيضاً نسيب المحاكاة التى تفيض فيها العاطفة وقد يجمع الشاعر إلى محاكاة الصناعة وصف اللذات أو المجون فنسيب امرئ القيس نسيب المحاكاة والصناعة . وقد يرق ويلطف ويدل على وجدان وعلى تعلق بإنسان جميل من غير أن يكون

هذا التعلق عشقاً كما كان عشقاً عميقاً عند قيس بن الملوح أو قيس بن ذريح
فإذا رق شعر امرئ القيس وقارب شعر العاطفة والوجدان قال في وصف حبيبته :

نُضِيءُ الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسَى راهب مُتَبَتِّل

ولكن أكثر نسيبه نسيب صنعة ووصف للذات . وكذلك نسيب مشهورى الشعراء فى ذلك العصر أمثال الأعشى والنابعة وزهير بن أبى سلمى وكعب بن زهير وطرفة بن العبد وغيرهم وهم الذين سنوا سنة غزل المحاكاة لشعراء الدولة الأموية ومحاكاة المحاكاة للعباسيين والمتأخرين وكان العبث اللفظى يزداد كلما بعد العهد بمن سن هذه السنة فى صناعة الشعر . وقد فطن جرير فى عهد الدولة الأموية إلى أن الصناعة وحدها لا تسيّر الشعر ولا تجعله يأخذ بمجامع القلوب فصار يخلط بين تمثيل العاطفة أو محاكاتها وبين الوجدان . ومن أجل ذلك كان شعره أرق وأسير فى عهده من شعر الشعراء المنافسين له .

ولكننا إذا أردنا أن نجتمع مجموعة من شعر النسيب فى اللغة العربية نفاخر بها اللغات الأخرى لم نلجأ إلى شعر امرئ القيس أو الأعشى أو أمثالهما ولا إلى شعر جرير والأخطل والفرزدق وأمثالهم ولا إلى شعر أبى نواس ومسلم بن الوليد وأبى تمام والبحترى وأمثالهم فإن هؤلاء امتازوا بالقول فى أبواب مختلفة من الشعر ولكن بزهم فى النسيب قيس بن الملوح وقيس بن ذريح وأبو صخر الهذلى وعروة بن حزام وابن الدمينه وجميل بن معمر وكثير على قلة ما انتهى إلينا من أقوال هؤلاء . وهؤلاء هم الذين قالوا أحسن ما قيل فى النسيب فى اللغة العربية وبهم نفاخر وهم الذين نرشح لينوبوا عن النسيب العربى فى معرض النسيب بين الأمم . انظر مثلاً إلى قول قيس بن الملوح من قصيدة فى التذكر والتمنى وهما موضوعان هامين من موضوعات النسيب قال :

فوالله ما أنساك ما هبت الصبا	وما غرد الغريد فى وضح الفجر
وما لاح نجم فى السماء وما بكث	مطوقة شوقاً على فنن الصدر
وما طلعت شمس لدى كل شارق	وما هطلت سحب على واضح الزهر

إلى أن قال :

تداويت من ليل بليلى من الهوى كما يتداوى شارب الخمر بالخمر
إذا ذُكِرَتْ يرتاح قلبي لذكرها كما انتفض العصفور من بلل القطر
ألا ليتنا كنا غزالين نرتعى رياضاً من الجوزان في بلد قفر
ألا ليتنا كنا حمام مفازة نظير ونأوى بالعشى إلى وكر

واستمر في ذكر أمانيه المختلفة إلى أن قال :

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أطراب الفؤاد ولا يدرى
دعا باسم ليلي غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان في صدرى

فهذا الشعر ليس فيه روعة الصنعة التى فى غزل أصحاب المعلقات ولكنه شعر صادق دافق من القلب يدل على أن قائله شاعر بطبعه وخياله ووجدانه ويدل على عاطفة صادقة تأخذ المألوف من مظاهر الكون والخلقة من تغريد الطيور فى وضح الفجر ومن هبوب النسيم وهطول المطر ونضرة الزهر وانتفاض العصفور والحمام فى الوكر والغزال فى القفر كى تعبر بها عن ذكريات القلب وأمانيه وهذه الوسائل التى تستخدمها والتشبيهات هى ألوان مادة الشاعر فليس كل شعر يحتوىها بشعر كما أن ليست كل صورة ذات ألوان بصورة . وإنما العاطفة هى التى تجعلها شعراً . وانظر إلى قول قيس بن الملوح أيضاً :

وأحبس عنك النفس والنفس صبة بذكراك والمسعى إليك قريب
مخافة أن تسعى الوشاة بظنة وأحرسكم أن يستريب مريب
سأستعطف الأيام فيك لعلها بيوم سرور من هواك تؤوب

وقوله :

فأصبحت من ليلي الغداة كناظر مع الصبح فى أعقاب نجم مُغْرِبٍ

وقوله :

الله يعلم أن النفس هالكة باليأس منك ولكنى أمّنيها
وساعة منك أهوها وإن قصرت أشهى لددى من الدنيا وما فيها

وقوله :

وكنـت كـذباًح العـصافـير دائباً وعـيناه مـن وـجـدٍ عـلـيـهـنْ تـهـمـل
فـلا تـنـظـرى لـيـلى إـلى العـيـن وآنـظـرى إـلى الكـف مـاذا بـالعـصافـير تـفـعـل

وهو لا يعنى كل ذباح للعصافير وإنما هو فرض كى يمثل معنى فعل الحب به وانظر إلى قوله فى قصيدته الياثية الكبيرة :

وقـد يـجـمـع اللـه الشـتـيـتـيـن بـعـد مـا
وخبـرتمـانـى أن تـيـمـاء مـنـزل
فـهـذـى شـهـور الصـيـف عـنا تـصـرمت
ومـا طـلـع النـجـم الـذى يـهـتـدى بـه
أـعد الـيـالى لـيـلة بـعـد لـيـلة
يـقـولـون لـيـلى بـالعـراق مـرـيـضـة
ولـم أـر مـثـلـنا خـلـيـلى جـنـايـة
خـلـيـلان لا نـرـجـو لـقـاء ولا تـرى
وإـنى لـأـسـتـحـيـيك أن تـعـرض المـنى
وأنتـ الـتى إـن شـئتـ أـشـقـيتـ عـيـشتـى
وإـنى لـيـنـسـينـى لـقـاؤك كـلـمـا
إـذا سـرت فـى أـرض خـلاء وـجـدتـنى
يـمـيـناً إـذا كـانت يـمـيـناً وإـن تـكن
وأنى لـأـسـتـغـشـى وما بـى نـعـسـة
هـى السـحـر لـولا أن لـلـسـحـر رـقـيـة
يظنـان كـل الظن أن لا تـلاقـيا
لـيـلى إـذا مـا الصـيـف ألقى المـراسـيا
فـما لـلنـوى تـرمى بـليلى المـرامـيا
ولا الصـبـح إلـأ هـيـجـا ذكـرها لـيا
وقـد عـشت دـهـراً لا أـعد الـيـاليا
فـيـالـتـنـى كـنت الطـيـب المـداوـيا
أشـد عـلى رـغم العـداة تـصـافـيا
خـلـيـلـين إلـأ يـرـجـوان التـلاقـيا
بـوصـلك أو أن تـعـرضـى فـى الدجـى لـيا
وأنتـ الـتى إـن شـئتـ أنـعمتـ بـاليا
لـقـيتـك يـومـاً أن أثـبـك مـا بـيا
أصـانـع رـجـلى أن لـيلى حـذايـيا
شـمـالاً يـنـازعـنى الهـوى عـن شـمـاليا
لـعل خـيـالاً مـنـك يـلقـى خـيـاليا
وأنى لا ألقى لها الدهر راقيا

لا أظن أن شاعراً يستطيع أن يميز الشعر الصادق يقول كما قال بعض الكتاب
أن شعر قيس بن الملوّح من وضع الرواة وأن قيساً هذا لم يكن له وجود . نحن
نفهم هذا القول لو كان الشعر فاتراً أو بارداً أو كاذباً أو مصطنعاً^(١)

(١) مثل ذلك إذا قارن القارئ المتنوّق معلقة عنترة العيسى (وهي لاشك من شعر شاعر) وبعض القصائد الفاترة الركيكة التي تنسب إلى عنترة سهل عليه تمييز الشعر الصادق والشعر الموضوع .

يستطيع أن يقوله كل إنسان ، أما أن يصنع الرواة شعراً من أصدق وأحسن ما قيل في اللغة العربية من النسب فهذا رأى لا نستطيع الأخذ به وأما أن بعض أبيات الشاعر نسبت إلى أكثر من شاعر فهذا لا يدل على شيء وله مثيل في كل عصر . وهذا شعر أبى تمام فيه أبيات وقصائد منسوبة إلى شعراء آخرين وهذا لا يدل على أن أبى تمام لم ينظم شعراً ولم يكن له وجود وظاهرة إنكار الوجود هذه ظاهرة مألوفة فقد أنكروا وجود هوميروس وشكسبير . وهناك مؤلف مؤرخ ينكر وجود سيدنا عيسى عليه السلام وقد اختلف الرواة في نسبة شعر كثير فاختلّفوا في نسبة قصيدة (صاح في العاشقين يا لكتانه) وفيها البيت المشهور :

خطرات النسيم تجرح خديـ
ـهـ ولمس الحرير يدمى بنائه

وهى ليست من شعر المتقدمين حتى يقال إن قدم الزمن هو الذى أنسى الرواة ولم يقل أحد أنها من صنع الرواة أنفسهم واختلفوا في نسبة شعر كثير للمتأخرين كقصيدة :

يا مطلباً ليس لى في غيره أرب إليك آل التقصى وانتهى الطلب

فنسبت لابن الخيمى ونسبت لنجم الدين بن اسرائيل . واختلف الرواة في نسبة بعض شعر قيس بن الملوّح لا يدل على شيء فإن شعره يدل على شخصية حية وعلى شاعر من الطراز الأول . ومثله في تلك الخصائص وفي تلك المنزلة قيس بن ذريح انظر إلى قوله :

لقد كان فيها للأمانة موضع وللنفس مرتاد وللعين منظر
وللحائم العطشان رى بحسنا وللمرح المختال خمر ومسكر
كأنى لها أرجوحة بين أحبل إذا ذكرة منها على القلب تخطر
وقوله :

أحبك أصنافاً من الحب لم أجد لها مثلاً في سائر الناس يوصف
فمنهنّ حب للحبيب ورحمة لمعرفتى منها بما يتكلف
وحب بدا بالجسم واللون ظاهر وحب لدى نفسى من النفس ألطف

وإلى قوله :

تعلق حبي روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافاً وفي المهد
فزاد كما زدنا فأصبح نامياً وليس إذا متنا بمنصرم العهد
ولكنه باقٍ على كل حادث وزائرنا في وحشة الموت واللحد

وقوله :

إذا طلعت شمس النهار فسلمى فآية تسليمي عليك طلوعها

وقوله :

بلبنى أنادى عند أول غشية ويشنى بها الداعى لها فأفيق
صَبَّوحى إذا ما ذُرَّت الشمس ذكرها ولى ذكرها عند المساء غبوق

وقد كان من رأينا دائماً أن شعر العاطفة والوجدان يتقارب في جميع اللغات وإنما الذى يتباعد في اللغات شعر الصنعة والمحاكاة بالصنعة لأن هذا أساسه العرف والاصطلاح والذوق الإقليمى . أما شعر العاطفة والوجدان فهو واحد في كل إقليم وإنك لو نقلت الشعر الذى استشهدنا به من شعر قيس بن الملوح أو قيس ابن ذريح إلى اللغات الأوربية لطرب له القراء كما يطرب قراء العربية إذا نقل إليها شعر العاطفة والوجدان من اللغات الأوربية نقلاً صحيحاً لا سخيلاً . ويقارب قيس بن الملوح وقيس بن ذريح في طريقتهما يزيد بن الطثيرة الذى يقول :

برغمى أطيل الصد عنها إذا نأت أحاذر أسماعاً عليها وأعينا
أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

ويقول :

أحبك أطراف النهار بشاشة وبالليل يدعونى الهوى فأجيب
أحبك حب اليأس لو ينفع الهوى وإن لم يكن لى من هواك طيب

ويقول :

بنفسى من لو مرُّ بردُ بنانه على كبدى كانت شفاءً أناملهُ
ومن هابنى فى كل شيء وهبته فلا هو يعطينى ولا أنا سائلهُ

ويقول :

أليس قليلاً نظرة إن نظرتها
فيا خلة النفس التي ليس فوقها
ويا من كتمنا حبه لم يُطع به
أما من مقام أشتكى غربة النوى
وكنت إذا ما جئت جئت بحاجة
ومثل هذا الشعر في صدق التعبير عن الأحاسيس النفسية شعر أى صخر
الهللى الذى يقول :

لقد كنت آتيا وفي النفس هجرها
فما هو إلا أن أراها فجاءة
وأنسى الذى قد كنت فيه هجرتها
وقد تركتني أحسد الوحش أن أرى
تكاد يدي تندى إذا ما لمستها
ولم لتعروني لذكراك هزة
بتأتا لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فأبئت لا عرف لدي ولا نكر
كما قد تُنسَى لبّ شاربها الخمر
ألفين منها لا يروعهما الذعر
وينبت في أطرافها الورق النضر
كما انتفض العصفور بَلَّله القطر

فهذا الشاعر لا ينظر في دواوين الشعراء كى يرى ماذا يقال في وصف
هذه العاطفة وكيف يقال وإنما ينظر في نفسه وأحاسيسها وهواجسها وما يعترى
نفسه وجسمه من أثر العاطفة . ومن شعراء هذه الطريقة ابن الدمينه فإن شعره
يروق ويصفو ويكتسب من وجدانه وعاطفته أنغاماً عذبة انظر إلى قوله :

أرى الناس يرجون الربيع وإنما
أرى الناس يخشون السنين وإنما
لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة
ربيعى الذى أرجو نوال وصالك
سينى التى أخشى صروف احتمالك
لقد سرنى أنى خطرت ببالك

وإلى قوله :

وقد زعموا أن المحب إذا نأى
بكلّ تداوينا فلم يشف ما بنا
على أن قرب الدار ليس بنافع
يل وأن النأى يشفى من الوجد
على أن قرب الدار خير من البعد
إذا كان من تهواه ليس بذى ود

وقوله :

ولاني لأستحيك حتى كأنما على بظهر الغيب منك رقيب
بنفسي وأهلى من إذا عرّضوا له ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب
ولم يعتذر عذر البريء ولم تزل به سكتة حتى يقال مريب

وهذه الأبيات الأخيرة إنما هي مثل من شواهد الخبرة بعلم النفس التطبيقي التي اكتسبها هؤلاء الشعراء لكثرة تأملهم في صفات النفوس وهذه الخبرة بالنفس تقل في شعر المتأخرين أو تنعدم إلا ما كان مأخوذاً بالمحاكاة عمن قبلهم : ومن شعراء هذه الطريقة أيضاً جميل بن معمر انظر إلى قوله :

لقد قلت في حبي لكم وصبايتي محاسن شعر ذكرهن يطول
فإن لم يكن قولي رضاك فعلمي نسيم الصبا يابثن كيف أقول
فما غاب عن عيني خيالك لحظة ولا زال عنها والخيال يزول

وقوله :

ومما شجاني أنها يوم أعرضت تولت وماء العين في الجفن حائر
فلما أعادت من بعيد بنظرة إلى التفاتاً أسلمته المحاجر

على مثل هذه المشاهد النفسية وأثرها كان يعتمد هؤلاء الشعراء لا على المبالغة والتشبيهات البعيدة فكان شعرهم على سهولة وبساطة مشاهداتهم أوقع في النفس من المبالغة والتشبيهات البعيدة وانظر إلى نصيب كيف يستخدم ما يشاهد من حياة الطيور لتصوير عاطفته في قوله :

كأن القلب ليلة قيل يُعْدَى بليلي العامرية أو يُرَاح
قطاة غرّها شرك فباتت تُجاذبُه وقد علق الجناح
لها فرخان قد تُركا بوكر فعشهما تُصفقهُ الرياح
إذا سمعا هبوب الريح نصّاً وقد أودى بها القدر المتاح

وللشاعر كثير أشعار عذبة تدل على وجدان ولو أنه كان يتهم بادعاء

العاطفة انظر إلى قوله :

وأدنتني حتى إذا ما ملكنتني بقول يُحلّ العصم سهل الأباطح

تناهيت عني حين ما لى حيلة
وغلادرت ما غادرت بين الجوانح
وقوله فى تائته الكبرية :

وقلت لها يا عز كل مصيبة
ولانى وتهيامى بعزة بعدما
لكالمرئى ظل الغمامة كلما
وقوله :

كرىم يمت السر حتى كأنه
ويرتاح للمعروف فى طلب العلا
إذا استخبروه عن حديثك جاهله
لثحمد يوماً عند لى شمائله

وفى هذه الأيات أيضاً خبرة بصفات النفوس ودراسة سيكولوجية وتصوير
لأثر الحب فى النفوس العالیه . ومن الشعر العذب الشهى قول أبى بكر الزهرى :

ولما نزلنا منزلاً طله الندى
أجداً لنا طيب المكان وحسنه
أنيقاً وبستاناً من الثور حالياً
منى فتمنينا فكنت الأمانيا
وقول الحارثى :

منى إن تكن حقاتكن أحسن المنى
ولاً فقد عشنا بها زمناً رغداً

وكأنما كانت هذه الطريقة عاصفة اشترك فى إثارتها المرقش وعروة بن حزام
وابن الدمينه وأبو صخر الهذلى وجميل بن معمر وعمر بن أبى ربيعة (وإن كان
شعره أقرب إلى اللهو والعبث) وكثير وقيس بن الملوخ وقيس بن ذريح والعرجى
والخزومى وأبو دهبلى وابن الرقيات وابن الطثرية وابن مياده والأحوص ونصيب
والخبل وذو الرمة والأبيرد وأبو حية التيمرى وتوبة بن الحمير والنهدى ومزاحم
ووضاح الين وعروة بن أذينة وغيرهم وامتدت إلى عصر الحسين بن مطير والعباس
ابن الأحنف . ولم ينعلم شعر العاطفة والوجدان بعد ذلك فإننا نرى شعراء الصنعة
أمثال بشار وأبى نواس ومسلم وأبى تمام لهم بجانب مجموعهم نسيب وجدانى رقيق
ولكنه قليل . وقد كان البحترى ذا مزاج فنى يشبه مزاج الممثل الذى يتملكه ما
يمثل من الأحاسيس . ومن أجل ذلك كان له نسيب رقيق عذب . ولابن الرومى

نسيب وجداني صادق ولكنه قليل^(١) . وكان الشريف الرضى ذا وجدان فجاء نسيبه وجداني النزعة وحاكاه مهيار ثم اعتمد الشعراء بعد ذلك على المغالاة والتشبيهات البعيدة أو الزخارف . وكان أكثر شعرهم محاكاة لمعاني من سبقهم ولم يخلف شعراء الصوفية مجموعة شعر ثمين عالٍ كما كنا نتنظر ولكنى أظن أن محيي الدين بن العربي والسهروردى وابن اسرائيل وابن الفارض لو تقدم بهم الزمن أو لو تأثروا بوجدان الشريف الرضى وأسلوبه لكان شعرهم أرقى منزلة فإن فيهم طبع الشعراء ومزاجهم ولكن تعوزهم قوة الأداء وفخامة الأسلوب وحسن الاختيار . فقصيدة السهروردي المشهورة التي مطلعها :

أبدأ تحنُّ إليكمُ الأرواح ووصالكم ريحانها والراح

تبدأ مبدأ رائعاً ولكنها تفتقر متأثرة بطريقة المتأخرين من ضعف في الأداء .

وقد اشتهر بهاء الدين زهير شهرة لا تناسب قيمة شعره فماله قوة في الأداء ولا فخامة ولا روعة في الأسلوب ولا وجدان عميق وأنغامه أنغام لفظية رخيصة مثل قوله :

أنا بالعاذل أهو أنا بالعاذل ألعب

وأحسن قصيدة في النسيب قالها شعراء الأندلس والمغرب هي قصيدة ابن زيدون النونية التي يقول في مطلعها :

أضحى التناؤ بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وهي تجمع بين علو الصنعة وصفاء الوجدان فليس لمحمد بن هانيء الأندلسي في النسيب ولا لابن حمديس ولا لابن خفاجة قصيدة تدانينا في هذه الصفات . وهذه القصيدة تذكرني بما يحكى عن بعض الطيور التي إذا حان حينها جمعت كل قوى روحها وأطلقتها في تغريدة قبل موتها . ونسيب ابن زيدون على العموم

(١) من نسيب ابن الرومي الرائع قوله :

أعانقها والنفس بعد مشوقة إلها وهل بعد العناق تداني
كأن قوايدي ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين يعتنقان

أكثر وجداناً من نسيب الآخرين وإن كان قد بزّه الآخرون في صفات أخرى فبزه ابن خفاجة وابن حمديس في الأوصاف وربما كان قد بزّه ابن هانيء الأندلسي في الأسلوب الخطابي وإن لم يكن تحت أسلوب ابن هانيء الأندلسي الخطابي دائماً معنى أو مزية . على أن لمحمد بن هانيء قصائد رقيقة يتغنى بها مثل قصيدة (فتكات طرفك أم سيوف أيك) وقصيدة (قمن في مأثم على العشاق) .

أما نسيب ابن سهل فهو نسيب رقيق يتغنى ببعضه ولكنه ليس فيه روح العباقرة وثروتهم الشعرية ولا يحاول قائله الأناقة في الأداء التي تزيد النسيب عذوبة وبعض الأناقة يفعل ذلك كما أن بعضها يثقل الشعر . ومما يُتغنى به قوله (سل في الظلام أخاك البدر عن سهرى) .

ومن التقسيم الذي فصلناه يتضح أنه ليس من المحتوم أن يطالب الشاعر بعشق كي يجيد النسيب ولكنه مطالب بوجدان يصدق ويعبر عن نواحي تلك العاطفة وبمزاج فني سليم وبصيرة سيكولوجية تمكنه من فهم أحاسيس النفس ومن تصويرها .

الرثاء في شعر العرب ^(١)

قد تقلبت على الشعر العربي عصور كثيرة لكل منها طريقة في صنعة الشعر والأداء فيه ، وقد ظهر في شعر المتأخرين أثر العبث والمغالطات اللفظية والمعنوية ، وإن كان الوجدان لم ينعدم كل الانعدام ، ومن الصعب أن نقصر صفة من صفات الشعر على عصر من العصور ، ولكننا نستطيع أن نقول على وجه الإجمال ، وإن شذت قصائد عديدة في التفصيل والتطبيق ، إن رثاء المتقدمين كان أكثر نصيباً من الوجدان ، وصدق العاطفة والبصيرة النفسية ، وإن شعر كبار شعراء الدولة العباسية في الرثاء كان أكثره رثاء تكسب إلا ما كان في رثاء قريب أو حبيب ، وقد كان رثاء التكسب في شعر بعضهم أعظم منزلة في الشعر من رثاء أقربائهم ، وكان عكس ذلك يصدق في شعر آخرين ، وكانت تغلب على شعرهم جودة الصناعة والتأنق فيها ، وفي استنباط الأخيلة والتشبيات ، وبعضهم كانت تغلب عليه نزعة التفكير ؛ ثم بعد هذا العصر ضعف الأداء وضعفت القدرة على الإتيان بالصناعة الفخمة الصادقة ، وكثرت المبالغة والمغالطة اللفظية والمعنوية . وقد يلتبس على القارئ نوع مبالغة العاطفة القوية ، ونوع مبالغة الصنعة الكاذبة التي تنم عن فتور العاطفة ونضوب العبقرية . والحقيقة هي أن المبالغة سواء أكانت في الرثاء أو في الغزل أو في أى باب آخر من أبواب الشعر هي في شعر العبقرى الصادق الصنعة ، وفي شعر الشاعر الذى تُسِيرُهُ العاطفة المألكة له من أبداع وأروع وأصدق ما يقال ؛ ولكن هذا الشاعر حتى في تلك المنزلة الجلييلة يكون كمن يطل على الشفير الهارى ، وخطوة واحدة قد تسقطه إلى حضيض الشعر ، حيث مغالاة الشعور الفاتر الذى يدعى صاحبه عظم العاطفة وصدق الوجدان ، وحيث مغالاة الشويعر الذى لا يفرق بين مبالغة العبقرى الصادق الصنعة ، ومبالغة المحاكاة والاحتذاء من غير فطنة وتمييز . والقارئ معذور فيما قد يقع فيه من الخطأ ، فالقراء قلما يفرقون بين نوعى المبالغة ، لولوع بعض كبار الشعراء بالمبالغة الكاذبة ، وقد يرى القارئ النوعين في شعر شاعر واحد .

(١) نشر بمجلة الثقافة الأعداد [١٩ ، ٢٠ ، ٢١] في ٩ ، ١٦ ، ٢٣ مايو سنة ١٩٣٩ م .

وسنستعرض الرثاء في شعر العرب في هذه المقالة ، وما قد يدخل في باب
من جيد القول .

وأول ما نذكر في هذا الباب قول امرئ القيس ، وقد مر بقبر عربية في
بلاد الروم . فقال أبياته المشهورة التي يقول فيها :

أجارتنا إنا غريان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

ولعل هذه الأبيات من أصدق ما قاله امرؤ القيس وجدانا وعاطفة بسبب
ما لقيه من خطب في بلاد الروم ، وقد ذهب إليها يطلب أن يعان على قتلة أبيه ،
فلم يظفر بمعونة ، وهى تختلف في أثرها في النفس عن شعر لهوه وعبته . ومن
الشعر المؤثر قصيدة عدى بن زيد التي يقول في مطلعها :

أيها الشامت المعير بالدهر سر آئت المبرأ الموفور

وفى يشير إلى قصة صاحب قصر الخورنق . ومن بديع وصف أثر الموت
في الأحياء قوله :

ثم أضحوا كأنهم ورق جـ ف فألوت به الصبأ والدبور

وله قصيدة أخرى في قصة الزباء وجذيمة . ولو تفرغ عدى بن زيد للشعر
القصصى لخلف ذخراً ثميناً . ومن مشهور الرثاء رثاء مُهَلِّهَل لأخيه كليب الذى
هاجت بمقتله حرب البسوس ، ورثاء جليلة بنت مرة أخت جساس قاتل كليب
لزوجها كليب ، وقد كانت جليلة بين شقى الرحا أو بين المطرقة والسندان ،
ولعل مصيبتها في أسرة القاتل والمقتول أخيها وزوجها أثرتا في قولها . وقد رأيت
من يقول إن أشعارها منحولة لأنها ليست فيها فخامة الشعر الجاهلى كشعر
المعلقات . وقد نسى هؤلاء أنها لم تكن تقول الشعر صناعة ، وأن الشعر الجاهلى
ليس كله في مستوى واحد ، فبعضه - حتى في شعر الشعراء المعروفين الذين
لم يقل أحد بأن شعرهم منحول - يفتقر في القول وتقل فيه الصنعة ، وبعض
الشعر العباسى الذى تعمد فيه الشاعر الصنعة والفخامة أو الغرابة في الأسلوب ،
قد يكون أشبه بالشعر الجاهلى من بعض الشعر الجاهلى أو الشعر الأموى ؛ ولكن
هذا ليس حجة لمن يقول إن الشعر الفاتر أو القليل الفخامة في الشعر الجاهلى

أو الأموى منحول موضوع . ومما يستجد فى الرثاء أيضاً قصيدة عبد يغوث فى رثاء نفسه ، ولعل تحسر الشاعر على ضياع حياته مع إظهار البسالة مما يجعل مثل هذا الشعر مأثوراً . ومثلها قصيدة مالك بن الرب فى رثاء نفسه أيضاً ، وفى قصيدة عبد يغوث يتلهف وهو يموت على سماع نشيد الرّعاء فى قوله :

أحقا عباد الله أن لستُ سامعا نشيد الرّعاء المعزين المتاليا

ومثل هذا التشوق الشجى تشوق مالك بن الرب فى قصيدته إلى رؤية سهيل النجوم . إذ يقول :

« يقر بعينى أن سهيل بدا ليا »

وتستجد فى الرثاء أبيات عبدة بن الضبيب التى يقول فيها :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

ومن الرثاء الجيد قصيدة دريد بن الصمة يرثى بها أخاه ، وفى هذه القصيدة من واجب مؤازرة المرء قومه ومناصرتة إياهم ، وإن كانوا على غير هدى ، ما يقول فيه الشاعر :

أمرتهمُ أمرى بمنعرج اللوى فلم يستينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنتُ منهم وقد أرى غوايتهم أنى بهم غير مهتدى
وهل أنا إلا من غزيرة إن غوث غويت ، وإن ترشد غزيرة أرشد

ومن ذكر محاسن الميت فيها قوله :

قليلٌ تشكّيه المصيبات ذاكر من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد
إذا هبط الأرض الفضاء تزينت لرؤيته كالماتم المتبدد

ومما يستجد فى الرثاء قصيدة قس بن ساعدة يرثى نديمه وفيها يقول :

خليلىُّ هُبّا طالما قد رقدتما أجدا كما لا تقضيان كراكما

وهى من الشعر السهل الكثير العاطفة . ولتأبط شرا قصيدة فى رثاء خاله ونسبت لابن أخته أيضاً ، وهى التى يقول فيها :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلاً دمه ما يُطلُّ

وقد قيل إنها موضوعة منحولة واهتموا خلفا الأحمر أو حمادا الراوية بوضعها ، وفي القصيدة بيت فيه شيء من قبيل الجناس والتورية ، إذا لم يكن أتى عفواً فهو دليل قاطع على أنها منحولة لأنه بعيد عن ذوق المتقدمين ، وهو قول الشاعر ويعنى بالخل الهزيل :

فاسقنيها يا سواد بن عمرو إن جسمي بعد خالي لَحْلُ

فذكر الخمر والخل والخال والخل بعيد عن ذوق المتقدمين إن لم يكن قد أتى عفواً ، ولم يفكر الشاعر إلا في معنى واحد لكلمة خل ، وعلى كل حال فإن راوية كبيرة كخلف الأحمر أرفع ذوقاً من أن يعتمد هذه الألاعيب في التورية أو الجناس ، ومن المستحيل أن يعتمدها تأبط شرا .

ومن جيد الرثاء قصائد الخنساء في أخيها صخر إلا أنها أكثرت وكررت ، فصار في قولها لجاجة المآثم ، ومن مشهور قولها :

قد كنتَ تحمل قلباً غير مُؤْتَشِبٍ مُرْكَباً في نصاب غير خَوَّارٍ
وقولها :

وإنَّ صخراً لَتَأْتُمَّ الهداة به كأنه عَلَمٌ في رأسه نارُ
وقولها :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخي ، ولكن أسَلَّى النفس عنه بالناسي

ومن الرثاء الجيد قول مُتَمِّم بن نويرة يرثي أخاه مالكا من قصيدة رائعة :

وَكُنَّا كندمانى جذية حقة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تَفَرَّقْنَا كَأَنى ومالكا لطول اجتماع لم نَبْتَ ليلة معا

وقصيدة أبى ذؤيب الهذلي في رثاء أبنائه من أبدع ما قال المتقدمون في الرثاء ، وهذه قصيدة جامعة في فناها ، ومثال من الفن العالى ، وفيها يقول :

وتجلدى للشامتين أَرِيَهُمْ أنى لريب الدهر لا أتضعضع

ويقول :

والنفس راغبة إذا رَغِبَتْها وإذا تُرِدَّ إلى قليل تقنع

ومن حكم الرثاء قصيدة لبید فی رثاء أخیه الی مطلعها : « بلینا وما تبلی
النجوم الطوالع » . وفيها یقول :

وما المرء إلا كالضرام وضوئه یحور رماداً بعد إذ هو ساطع
ومن مآثور الرثاء فی شعر المتقدمین قصيدة علقمة ذی جدن الی مطلعها :
« لكل جنب (إجتى) مضطجع »

وإجتى اسم المرأة الی یخاطبها ، وفی هذه القصيدة شیء من جلال الموت
وروعة زوال العظمة . وقد اشتهر كثير من نساء العرب بالمرأى ، وقد ذكرنا
مرأى الخنساء ، ومنهن أيضاً لیلی الأخيلية الی رثت توبة بن الحُمیر الشاعر بقولها
من قصيدة :

لعمرك ما بالموت عار علی الفتی إذا لم تُصبه فی الحیاة المعایر ^(١)

ولها بیتان فی اجتماع الرجولة والتواضع والحياء والبسالة وهما قولها :

ومُخْرِقٍ عنه القميص تخاله بین البيوت من الحياء سقيما
حتى إذا رُفِعَ اللواء رأيته تحت اللواء علی الخميس زعيما

(الخميس الجيش) ومن نساء العرب اللواتی اشتهرن بالرثاء أخت الوليد
ابن طريف الی رثته بقصيدة من أعيان الشعر ، وهی الی تقول فیها :
أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تحزن علی ابن طريف
وتقول :

فقدناك فقدان الربيع وليتنا فدينك من فتياننا بألوف

وقولها إن الشجر مورق كأنه لم یحزن أصدق فی فن الشعر وأوقع فی النفس
من قول من یقول إن الشجر صوحت أوراقه حزناً علی المرثی . ومن جيد الرثاء
فی أشعار المتقدمین قول مضاض بن عمرو من قصيدة :

(١) هذه القصيدة فی كتاب « الشعر والشعراء » منسوبة إلى لیلی الأخيلية ، ولكنها فی « الأغاني »
منسوبة للرقاشي الشاعر . والمبرد فی الكامل ينسبها للیلی كما ينسبها ابن قتيبة صاحب « الشعر والشعراء » .

كَأَن لَمْ يَكُن بَيْنَ الْحَجُونَ إِلَى الصَّفَا أَنِيسَ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرَ
 وَشَعْرَ أُمِّ زَيْدِ الطَّائِي فِي الرِّثَاءِ شَجَى وَفِيهِ نَغْمَةٌ مِنْ شَعْرِ عَدَى بْنِ زَيْدٍ .
 كَمَا أَنَّ رِثَاءَ ابْنِ مَنَازِدٍ فِيهِ نَغْمَةٌ مِنْ شَعْرِ أُمِّ زَيْدِ الطَّائِي ، وَيَعْجِبُنِي لِأُمِّ زَيْدٍ قَوْلُهُ :
 مَنْ يَخُنُّكَ الصَّفَاءُ أَوْ يَتَبَدَّلُ أَوْ يَزِلُّ مِثْلَ مَا تَزُولُ الظَّلَالُ
 فَاعْلَمْ أَنَّي أَخَوُكَ أَخُو الْعَهْدِ حِدَ حَيَاتِي حَتَّى تَزُولَ الْجِبَالُ
 وَلَكَ النُّصْرُ بِاللِّسَانِ وَبِالْكَفِّ إِذَا كَانَ لِلْيَدَيْنِ مَصَالُ
 وَمَنْ مَأْثُورُ الرِّثَاءِ قَصِيدَةُ زِيَادِ الْأَعْجَمِ فِي الْمَغِيرَةِ بْنِ الْمُهَلَّبِ وَفِيهَا يَقُولُ :
 إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمَرْوَةَ ضُمَّنَا قَبْرًا يَمْرُو عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ
 وَمَرَاتِي الشَّمْرَدِلَ وَالْأَبِيرِدَ مَشْهُورَةً . وَقَدْ أوردَ الْمُفَضَّلُ الضُّبِّي فِي
 الْمُفَضَّلِيَّاتِ قَصِيدَةً لِأَعْرَابِيَةٍ فِي رِثَاءِ ابْنِ لَهَا وَهِيَ الَّتِي تَقُولُ فِيهَا : « يَا عَمْرُو
 يَا أَسْفَى عَلَى عَمْرُو » . وَهِيَ مِنْ رِثَاءِ الْعَاطِفَةِ لِارِثَاءِ الذِّكَاةِ وَالْفِكْرِ . وَلَأَعَشَى
 بَاهِلَةً مَرِثِيَتَهُ الْمَشْهُورَةَ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا : « إِنِّي أَتَنَّى لِسَانَ لَا أُسْرُ بِهَا » وَفِيهَا يَقُولُ
 فِي مَدْحِ الْمَرْتِي :

مَنْ لَيْسَ فِي خَيْرِهِ مَنْ يُكَدِّرُهُ عَلَى الصَّدِيقِ وَلَا فِي صَفْوِهِ كَدَرُ
 وَلَيْسَ فِيهِ إِذَا اسْتَنْظَرْتَهُ عَجَلُ وَلَيْسَ فِيهِ إِذَا يَاسَرْتَهُ عَسَرُ
 مَرُورِي حُرُوبٍ شَهَابٌ يَسْتَضَاءُ بِهِ كَمَا أَضَاءَ سَوَادَ الطَّخِيَةِ الْقَمَرُ

وَمِنْ جَيِّدِ التَّأْيِينِ أَيْضاً قَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْغَنَوِيِّ فِي رِثَاءِ أَخِيهِ وَهِيَ
 قَصِيدَةٌ مِنْ أَعْيَانِ الشَّعْرِ وَفِيهَا يَقُولُ :

فَتَى مَا يَبَالِي أَنْ يَكُونَ بِجَسَمِهِ إِذَا نَالَ خِلَاطَ الْكِرَامِ شُحُوبُ
 إِذَا مَا تَرَاهُ الرِّجَالُ تَحْفَظُوا فَمَا تُنْطِقُ الْعُورَاءُ وَهُوَ قَرِيبُ
 حَلِيمٍ إِذَا مَا الْحَلَمُ زَيْنَ أَهْلِهِ مَعَ الْحَلَمِ فِي عَيْنِ الْعَدُوِّ مَهِيبُ

وَتُسْتَجَادُ قَصِيدَةُ شَبَلِ بْنِ مَعْبِدِ الْبَجَلِيِّ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

فَقَدْ أَصْبَحُوا لَا دَارَ لَهُمْ مِنْكَ غَرْبَةً بَعِيدَ وَلَا هُمْ فِي الْحَيَاةِ قَرِيبُ
 وَلَسْنَا بِأَحْيَا مِنْهُمْ غَيْرَ أَنَّنَا إِلَى أَجَلٍ تُدْعَى لَهُ فَتَجِيبُ

ومن مأثور الرثاء قول كُثِيرَ الشاعر في رثاء صديقه الأسدى وفيه البيت المشهور :

فلا تبعد فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق أو يغادى

وقد قيل إن أبا زكار الأعمى المغنى كان يغنى به في مجلس جعفر البرمكى عندما أتى خادم الرشيد للفتك به ، وهذا من غريب الصدف ، كما ذكروا أيضاً عن بيت حريث بن جبلة العذرى ، فقد وجد مصداقاً في الحياة أو وضعت له قصة مصداق والبيت هو :

يكنى الغريب عليه ليس يعرفه وذو قرابته في الحى مسرور

ومن الصدف التى تدعو إلى التشاؤم أن أرطاة بن سُهَيْة ، وكان يكنى بأبى الوليد ، أنشد عبد الملك بن مروان ، وكان أيضاً يكنى بأبى الوليد قوله :

رأيت المرء تأكله الليالى كأكل الأرض ساقطة الحديد

وما تبقى المنية حين تأتى على نفس ابن آدم من مزيد

واعلم أنها ستكُفّر حتى تُوفّى نذرها (بأبى الوليد)

ومن مأثور الرثاء قصيدة جرير في رثاء زوجه نوار ، وأحسن ما فيها وصف محاسن شمائل النساء .

وقد استجاد المبرد في كتابه (الكامل) مرثية ابراهيم بن المهدي في ابنه ، وهى من شعر العاطفة السهل المأخذ الخالى من جلال الصنعة . ومن المأثور رثاء مروان بن أبى حفصة في معن بن زائدة وهو قوله : « مضى لسبيله معن وأبقى » إلخ .

وأحسن منه في رثاء معن هذا قول الحسين بن مطير من قصيدة :

فيا قبر معن كيف وارىت جوده وقد كان منه البر والبحر مترعا

فتى عيش في معروفة بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

(ويروى ممرعا بدلا من مرتعا)

ومراثى ألى العتاهية من مأثور الرثاء ، إذ أن التفكير فى الموت كان متمكنا
من نفسه تمكنا كبيراً ، ويروى له قوله :

وكانت فى حياتك لى عظام وأنت اليوم أعظ منك حياً
وقوله :

قد لعمرى حكيت لى غصص الموت وحركتني لها وسكتنا

ولمحمد بن منذر مرثيته الشهيرة فى عبد المجيد الثقفى ، وقد قالها على وزن
وقافية وروى قصيدة فى الرثاء لأبى زيد الطائى الذى تقدم ذكره . وفى شعر
ابن منذر شىء من نغمة شعر أبى زيد الطائى وعدى بن زيد ، وتراه فى هذه
القصيدة ينحو منحى عدى بن زيد فى الإشارة إلى قصص الملوك والدول الزائلة ،
وفى القصيدة يقول :

يقدح الدهر فى شمرايخ رضوى ويحط الصخور من هبؤد
ولقد ترك الحوادث والأيام وهيا فى الصخرة الصيخود

وفىها يقول :

وأرانا كالزراع يحصده الدهر ر فمى بين قائم وحصيد
وكأنا للموت ركب مُحْبُؤ ن سراعاً لمنهل مورود

ومن بديع وصفه للمرثى قوله :

حين تمت آدابه وتردى برداء من الشباب جديد
وسقاه ماء الشبيبة فاهتـ ز اهتزاز الغصن الندى الأملود
وسمت نحوه العيون وما كا ن عليه لزائد من مزيد
وكأنى أدعوه وهو قريب حين أدعوه من مكان بعيد
فلئن صار لا يجب لقد كا ن سميعاً هَشّاً إذا هو نودى (١)

(١) كتاب الكامل للمبرد من الكتب القليلة التى جاءت بأكثر هذه القصيدة . وابن منذر هذا
من الشعراء الذين نأسف لضىاع أكثر شعرهم ، كما نأسف لضىاع أكثر شعر دعبيل الخزاعى وأشجع السلمى ،
فمن القليل المخلف نستطيع أن نقول إنهم كانوا من الطراز الأول .

ومسلم بن الوليد من الشعراء الذين أجادوا الرثاء بقدر إجادتهم المديح .
ومن رثائه المأثور قصيدته في يزيد بن مزيد التي يقول فيها :

أَحَقُّ أَنَّهُ أَوْدَى يَزِيدَ تَأْمَلُ أَيُّهَا النَّاعِي الْمُشِيدُ
أَتَدْرِي مِنْ نَعِيَتْ فَكَيْفَ فَاهَتْ بِهِ شَفَتَاكَ كَانَ بِهَا الصَّعِيدُ
أَحَامِي الْمَجْدَ وَالْإِسْلَامَ أَوْدَى فَمَا لِلْأَرْضِ وَيَحْكُ لَا تَمِيدُ

وقوله « فما للأرض لا تميد » يذكرنا قول الفارعة أخت الوليد بن طريف :
« أيا شجر الخابور مالك مورقا » . وقد فضل مسلم أيضاً الصنعة الشعرية العالية
الصادقة ، فلم يقل إن الأرض مادت لمصرع المرثى .

ومن الرثاء المؤثر قول محمد بن عبد الملك الزيات في رثاء زوجه ، وحزن
ابنه الصغير عليها :

أَلَا مَنْ رَأَى الطِفْلَ الْمَفَارِقَ أُمَهُ بَعِيدَ الْكَرَى عَيْنَاهُ تَنْسَكِبَانِ
رَأَى كُلَّ أُمٍّ وَابْنَهَا غَيْرَ أُمِهِ يَبِيتَانِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَنْتَجِيَانِ
وَبَاتَ وَحِيداً فِي الْفِرَاشِ تُجِنُّهُ بِلَابِلِ قَلْبٍ دَائِمٍ الْخَفَقَانِ
فَهَبْنِي عَزَمْتُ الصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنَّنِي جَلِيدٌ فَمَنْ بِالصَّبْرِ لِابْنِ ثَمَانِ
ضَعِيفُ الْقَوَى لَا يَطْلُبُ الْأَجْرَ حَسْبَهُ وَلَا يَأْتِسِي بِالنَّاسِ فِي الْحَدَثَانِ

ويعجبني في الفراق الذي يذكر بفراق الموت قول العتابي مخاطباً الفرقدین :

أَيْنَا قَدَّمْتُ صُرُوفَ الْمَنَايَا فَالَّذِي أَخَّرْتُ سَرِيعَ الْحَقِاقِ
كَمْ صَفِيَّيْنِ مُتَّعَا بِاتِّفَاقِ ثُمَّ صَارَا لْغَرْبَةِ وَافْتِرَاقِ
قَلْتُ لِلْفَرَقْدَيْنِ وَاللَّيْلِ مُلْقِ سُودَ أَكْنَافِهِ عَلَى الْآفَاقِ
إِقْيَا مَا بَقِيَتَا سَوْفَ يُرْمَى بَيْنَ شَخْصَيْكُمَا بِسَهْمِ الْفِرَاقِ

ومناجاة العتابي للفرقدین في أثرها في الوجدان تذكرني مناجاة مطيع بن
إياس لنخلتي حلوان في قوله :

أَسْعِدَانِي يَا نَخْلَتِي حُلْوَانِ وَارْتِيَالِي مِنْ رَيْبِ هَذَا الزَّمَانِ
وَاعْلَمَا أَنَّ رَيْبَهُ لَمْ يَزَلْ يَفُ رَقَ بَيْنَ الْأَلُوفِ وَالْجِيرَانِ
وَلَعَمْرِي لَوْ ذُقْتَا أَلَمَ الْفَرِّ قَةً أَبْكََاكَمَ الَّذِي أَبْكَانِي

أسعداني وأيقنا أن نحساً سوف يلتاقا فتفترقان
وقول العتاني « قلت للفرقدين » يذكرني من شعر المتأخرين قول شهاب
الدين بن فهد الحلبي في قصيدة « إن من تهواه قد ظعنا » ، وهي من الشعر
الوجداني المؤثر ، وقد قال فيها :

قلت للبدر المنير وقد غاب من أربى عليه سنًا
غب أو اطلع إن أردت فما فيك لي عمن فقدت غنى
أنبأتني الشمس عنه وعن بدرها إذ غاب واقترا
نحن كنا إخوة شرفاً فأصاب الدهر أحسننا
إلى أن قال :

أرتجى واليأس يهزأ بي أن يضم الدهر الفتنًا
وضلال الحب غادر لي فيكم بعد المنون منى

وفي القصيدة يصف الشاعر ويقارن بين أثر محاسن الطبيعة والحياة في نفسه
قبل فقد أحبابه وبعد فقدهم ، وهي من الشعر المختار من كتاب « فوات الوفيات »
للصلاح الكتبي ، وهو الكتاب الذي أكمل به « وفيات الأعيان » لابن خلكان .
ومراثي عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن في جاريته التي قتلها غيره
مشهورة ، ولكن تعجبني قصيدته في رثاء خل له وهي التي قال فيها :

وتضحك سن المرء والقلب مودع ويرضى الفتى عن دهره وهو عاتب

إلى أن قال :

فتى كان مثل السيف من حيث جثته لنائبة نابتك فهو مضارب
بكاك أخ لم تحو به بقرابة بلى إن إخوان الصفاء أقارب
وأظلمت الدنيا التي كنت جارها كأنك للدنيا أخ ومُناسب

وقد اشتهر أبو تمام بمراثيه الرائعة مثل قصيدة « كذا فليجل الخطب وليفدح
الأمر » وقصيدة « إن المنون إذا استمر مريرها » في رثاء ابني عبد الله بن طاهر ،
وقصيدة في رثاء بني حميد ، وهي التي يقول فيها :

وأَنْفَسَ تَسْعُ الْأَرْضُ الْفَضَاءَ فَلَا يَرْضُونَ أَوْ يَجْشِمُوهَا فَوْقَ مَا تَسْعُ
يُودُ أَعْدَاؤُهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ قُتِلُوا وَأَنْهُمْ صَنَعُوا بَعْضَ الَّذِي صَنَعُوا
عَهْدِي بِهِمْ تَسْتَنِيرُ الْأَرْضُ إِنْ نَزَلُوا بِهَا وَتَجْتَمِعُ الدُّنْيَا إِذَا اجْتَمَعُوا

والقصيدة التي يقول فيها : « هو الدهر لا يشوى وهن المصائب »
وغيرها . والغريب أن له قصائد في الرثاء عديدة أفخم وأعظم من رثائه لابنه
الوحيد ، ولعل العاطفة قهرته ومنعته من إجادة الصنعة وبددت قوتها فيه .

واشتهر البحترى بقصائد في الرثاء مثل رثاء المتوكل ورثاء الفرس ووصف
آثارهم وهي السينية المشهورة ، وله في رثاء بنى حميد قصيدة من أروع الشعر
وهي التي يقول فيها مخاطباً قصرهم :

فَصَرْتُ كَعَشٍ خَلْفَتَهُ فِرَاحَهُ بَعْلِيَاءَ فِرْعَ الْأَثَلَةِ الْمُتَهَشِّمِ
فَكُلَّ لَهُ قَبْرٍ غَرِيبٍ بِيْلَدَةٍ فَمَنْ مَنَجْدُ نَائِي الضَّرِيحِ وَمُتَّهِمِ
قُبُورٍ بِأَطْرَافِ الثُّغُورِ كَأَنَّمَا مَوَاقِعُهَا مِنْهَا مَوَاقِعُ أَنْجَمِ

إلى أن قال :

سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الْخَلَائِقِ إِنَّمَا مُسَلِّمَةٌ مِنْ كُلِّ عَارٍ وَمَائِمِ
وَمَنْ أَجَلُّ الشَّعْرِ تَائِيَةٌ دَعْبِلُ فِي رِثَاءِ آلِ الْبَيْتِ الَّتِي مَطْلَعُهَا :
مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلٌ وَحَى مَقْفَرِ الْعَرَصَاتِ

وفيه يقول :

بَنَاتُ زِيَادٍ فِي الْقُصُورِ مَصُونَةٌ وَآلُ رَسُولِ اللَّهِ فِي الْفُلُوتِ
إِذَا وَثُرُوا مَدُّوا إِلَى أَهْلِ وَتَرَهُمْ أَكْفًا عَنِ الْأَوْتَارِ مَنْقِبُضَاتِ

وكان دعبل يتهم أباً تمام بالسرقة من أشعار من جاء قبله كما ذكر في الأغاني ،
ولكن فاتته أن أخذ أي تمام كأخذ الملك الفاتح الغازي لا كأخذ قاطع الطريق .

وقد أجاد ابن الرومي كل الإجادة في مراثيه الدالية لابنه التي يقول فيها :
« بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى » . ومن رائع الرثاء قصيدته في يحيى بن عمر

العلوى التى يقول فيها ^(١) :

لَمَنْ تَسْتَجِدُّ الْأَرْضَ بِعَدِكَ زِينَةً فَتَصْبَحُ فِي أَثْوَابِهَا تَبَرُّجًا ؟
سَلامٌ وَرِيحَانٌ وَرُوحٌ وَرَحْمَةٌ عَلَيْكَ وَمَمْدُودٌ مِنَ الظِّلِّ سَجْسَجٌ
وَلَا بَرَحَ الْقَاعِ الَّذِى أَنْتَ جَارُهُ يَرْفُ عَلَيْهِ الْأَقْحَوَانُ الْمَفْلُجُ

وقد نحا فيها منحى دعبل الخزاعى فى قوله :

فَالْ رَسُولُ اللَّهِ نُحُفٌ جَسُومُهُمْ وَآلُ زِيَادٍ حُفْلُ الْقَصْرَاتِ

فقال :

أَفَى الْحَقِّ أَنْ يُنْمَسُوا خِمَاصًا وَأَنْتُمْ يَكَادُ أَحْوَكُ بِطْنَةٍ يَتَّبَعُ
وَلِيْدُهُمْ بَادَى الضَّوَى وَوَلِيْدُكُمْ مِنَ الرِّيفِ رِيَانُ الْعِظَامِ خَذَلُجُ

وقد أجاد المتنبى فى رثاء أم سيف الدولة فى القصيدة الجامعة التى يقول

فيها :

وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ

وقد انتقد ابن رشيق فى كتاب « العمدة » كما انتقد الصاحب بن عباد قوله « الوجه المُكْفَنُ بالجمال » وقال ما كان يحسن ذكر الجمال فى رثاء عجوز ، ولكن هذا مغالاة فى النقد ، فإن جمال الشيخوخة لا يستدعى الشهوة وإنما يستدعى زيادة الإجلال والخشوع . وأجاد المتنبى فى رثاء يماك مملوك سيف الدولة ومزجه بالحكمة فى قوله :

وَقَدْ فَارَقَ النَّاسُ الْأَحْبَةَ قَبْلَنَا وَأَعْيَا دَوَاءُ الْمَوْتِ كُلُّ طَبِيبٍ
سُبِقْنَا إِلَى الدُّنْيَا فَلَوْ عَاشَ أَهْلُهَا مُنِعْنَا بِهَا مِنْ جِيئَةٍ وَذَهَابٍ
تَمْلِكُهَا الْآتَى تَمْلِكُكَ سَالِبٌ وَفَارَقَهَا الْمَاضَى فِرَاقُ سَلِيبٍ
وَلَا فَضْلَ فِيهَا لِلشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَصَبْرَ الْفَتَى لَوْلَا لِقَاءُ شُعُوبٍ
وَأَوْفَى حَيَاةِ الْغَابِرِينَ لِصَاحِبٍ حَيَاةِ امْرِئٍ خَانَتْهُ بَعْدَ مَشِيبٍ

(١) أفسد ابن الرومي هذه القصيدة بالفحش فى الأبيات التى أولها (بآية أن لا يريح المرء منكم) الخ .

وهو أيضا يخلط الحكمة بالرياء في رثاء أخت سيف الدولة في قوله : « فلا تنلك الليالى » إلخ . وقد أبدع أيضا في رثاء جدته في القصيدة التى يقول فيها :
عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا فلما دهنتى لم تزدنى بها علما

على أن نقد ابن رشيق كان ينبغى أن ينصب على جانب من رثاء المتنبي ترك فيه صنعة الفارعة أخت الوليد بن طريف في قولها : « أيا شجر الخابور مالك مورقا » وصنعة مسلم بن الوليد العالية في قوله : « فما للأرض ويحك لا تميد » وقال إن الكون اضطرب لموتى المرنى :

والشمس في كبد السماء مريضة والأرض واجفة تكاد تمور

ولو احترس وقال حسينا الشمس إلخ لكان أفخم . وله في رثاء عمه عضد الدولة بجانب الحكمة العالية مغالطات من ذكاء الصنعة ، والحقيقة هى أن الشعر في هذا العصر بدأت تختلط فيه مبالغة العاطفة والصنعة الحاذقة العالية بمبالغة المغالطات الفكرية واللفظية ، وهذا يتضح أيضاً في شعر المعرى على حكمته وعلو منزلته ، فتراه يؤنب أباه ويصف نفسه بالحزن بعده وقلة الضحك فلا يظهر فمه ثناياه فيقول :

كأن ثناياه أو أنس يُتَغى لها حسن ذكر بالصيانة والسجن

وهذا تخيل بديع ، ولكنه بعيد عن عاطفة الحزين لموت أبيه . وأحسن من هذا قصيدته التى مطلعها « غير مُجِدِّ فى ملَّتى واعتقادى » والأخرى التى مطلعها « أحسن بالواجد من وجده » . ومن على الحكمة فيها قوله :

والقلب من أهوائه عابد ما يعبد الكافر من بدّه

أى أن القلب يعبد أهواءه كما يعبد الكافر الصنم المعبود .

ومن ماثور الرثاء قصيدة ابن نباتة السعدى في رثاء أمه ، وفيها يقول :

فقدتُ كبيراً بر أم حَفِيَّةٍ كما فقد الثدى المعللُ مُرَضِعُ

وهذا يشبه قول المعرى في رثاء أمه :

مضت وقد اكتهلتُ فخلتُ أنى رضيع ما بلغت مَدَى الْفِطَامِ

وقد كان عبد العزيز بن نباتة السعدي والشريف الرضی ومهيار الديلمي
أوداءً ، ومن أجل ذلك يتقارب شعرهم في نغمته ووجدانه . وللشريف مراثٍ
رائعة في جده الحسين رضی الله عنه وفي أمه وفي آل المصیب وفي الصاحب بن
عباد وفي صديقه أبي هلال الصامی ، وفي رثاء الصاحب يقول :

كان الغرية في الأنام فأصبحوا من بعد غارب نجمه أمثالا
وفي رثاء الصامی يقول :

كم من طويل العمر بعد وفاته بالذكر يُصحب حاضراً أو بادی
ما مات من جعل الزمان لسانه يتلو مناقب عُوداً وبوادی
فاذهب كما ذهب الربيع وإثره باق بكل خمائل ونجاد
لا تبعدن وأين قربك بعدها إن المنايا غاية الإبعاد

وقد أجاد مهيار تلميذ الشريف الرثاء كما في رثائه ابن نباتة في قوله :
أفلم يرغها منك نفس حرة كنت الوحيد بها وأنت قبيل
غنيث عن الآمال باستعفافها ولكل صاحب حاجة تأميل
وفي رثائه الشريف الرضی في قوله :

عادت أراكة هاشم من بعده خورا لفأس الحاطب المتوقد
فجعت بمعجز آية مشهودة ولرب آيات لها لم تُشهد
وفي رثائه لغلام تبناه يقول :

فجعتُ به غصُّ الشمال والهوى مُسنَّ الحجى والفضل مقتبل السن
على حين قامت للمنى فيه سوقها وحقت شهادات المخائل والظن
كأن فراخ الوكن بين جوانحي أقمن وطار الأمهات عن الوكن

ويقول في مريثة أخرى :

سلام على الأفراح بعدك لأنها وإن عشت ليست لإربة من مآرى

ومن أعظم ما قيل في رثاء الأبناء قصيدتا التهامي الرائيان في رثاء ابنه وفي واحدة منهما يقول :

عجل الخسوف عليه قبل أوانه فمحا قبل مَظَنَّة الإبدار
واسْتُلَّ من أترابه ولداته كالملقطة استَلَّت من الأشفار
فكأن قلبى قبره وكأنه في طيه سر من الأسرار
أشكو بعادك لى وأنت بموضع لولا الردى لسمعت فيه سرارى
والشرق نحو الغرب أقرب شقة من بُعد تلك الخمسة الأشبار

وفي الأخرى يقول :

أبا الفضل طال الليل أم خاننى صبرى فَحُيِّل لى أن الكواكب لا تسرى
أَحْمَلُهُ ثقل التراب وإنسى لأخشى عليه الثقل من موطىء الذر

ومن أروع وأفخم ما قيل في الرثاء قصيدة الطغرائى على وزن وقافية وروى القصيدة السابقة ، قالها في رثاء زوجه وهى فريدة في بابها ، قال فيها :

وفزت بها ما بين يأس وخيبة كما استخرج الغواص لؤلؤة البحر
فجاءت كما شاء المنى واشتبهى الهوى كالألأ ونبلاً في عفاف وفي ستر

إلى أن قال :

وقد كان ربى أهلاً بك مدة أحن إليه حنة الطير للوكر
وآوى إليه وهو روضة جنة بدائعها يَحْتَلِن في حُلَى حُضر
فمذ بنت عنه صار أوحش من لظى وأضيق من قبر وأجذب من قفر

وقصيدة الأنبارى المشهورة في عظيم صُلب من أروع الشعر وفيها يقول :

علو في الحياة وفي الممات لحق تلك إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا وفود نذاك أيام الصلّات
كأنك قائم فيهم خطيباً وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاءً كمدهما إليهم بالهبات

وقدرة الشاعر البيانية وقوته تجعل القارئ ينسى هول ما حل بالمرثى من تحقير وتمثيل وتشنيع . ولعل هذا هو ما أراد الشاعر ، وما يبرر تلك المغالطة البيانية .

وللأندلسيين وشعراء المغرب مراثٍ جيدة ، فمنها مراثية محمد بن هانى
الأندلسى التى يقول فيها :

خرستُ لعمر الله أنفسنا لما تكلم فوقنا القدر
إلى أن يقول :

تفنى النجوم الزهر طالعة والنيران الشمس والقمر
ولئن سرى الفلك المٌدار بها فلسوف يُسَلِّمُها وتنفطر
وإذا انتهت إلى مدى أمل دركا فيومٍ واحدٍ عُمرُ

ولابن حمديس الصقلى مراثٍ شجية منها قصيدته التى مطلعها : « يهدم
دار الحياة بانها » فى رثاء جارية غرقت ، وفيها يقول :

يا بحر أغرقت غير مكترث من كنت لا للبياع أغليها
جوهرة كان خاطرى صدفا لها أقبحا به وأحميها
عانقها الموت ثم فارقها عن ضمة فاض روحها فيها

وقال فيها من قصيدة أخرى :

أيا رشاقة غصن البان ما هصرك ويا تألف نظم الشمل من نثرك
لاصبر عنك وكيف الصبر عنك وقد طواك عن عيني الموج الذى نشرك
كلأ وروضة ذاك الحسن ناضرة لا تلحظ العين فيها ذابلا زهرك
أى الثلاثة أبكى فقهه بدم عميم خلقك أم معنك أم صغرك
من أين يقبح أن أفنى عليك أسى والحسن فى كل فن يقتفى أثرك
كنت الشبية إذ ولت ولا عوض منها ولو ربح الدنيا الذى خسرك

وابن خفاجة الأندلسى فى مراثيه يجيد وصف وحشة الأسى ، وروعة الموت
وجلال مناظر الفناء ، كما يجيد فى قصائد وصف الطبيعة ، وصف محاسنها
وملذاتها ، ومن مراثيه قوله يرنى صديقاً عزيزاً :

وكفى اكتساباً أن تعيث يد البلى فى محو تلك الصورة الحسناء
فلطالما كنا نرعى بظله فنسريح منه بسرحة غناء

فَقَتَّتْ عَلَى حَكْمِ الْبِشَاشَةِ نُورَهَا وَتَنَفَسَتْ فِي أَوْجِهِ الْجَلَسَاءُ
تَتَفَرَّجُ الْعَمَاءُ عَنْهُ كَأَنَّهُ قَمَرٌ يُمَزَّقُ شَمْلَةَ الظُّلَمَاءِ

وقوله من قصيدة أخرى :

كُنَّا اصْطَحَبْنَا وَالتَّشَاكُلَ نَسِيبَةً حَتَّى كَأَنَّا عَاتَقَ وَنَجَادَ
ثُمَّ افْتَرَقْنَا لَا لِعُودَةٍ صَحْبَةٍ حَتَّى كَأَنَّا شَعَلَةَ وَزَنَادَ
يَا أَيُّهَا النَّائِيُّ وَلَسْتُ بِمُسْمِعٍ سَكَنَ الْقُبُورِ وَيَنِينَا أَسَدَادَ
مَا تَفْعَلُ النَّفْسُ النَّفِيسَةَ بَعْدَ مَا تَتَهَاجَرُ الْأَرْوَاحُ وَالْأَجْسَادَ

ومنها في وصف دولة الموت :

فِي مَوْطِنٍ نَزَلَتْهُ جِرْهَمٌ قَبْلَهُ وَتَحَوَّلَتْ لِأَرَمٍ إِلَيْهِ وَعَادَ
أُمٌّ يَغْصُ بِهَا الْفَضَاءُ طَوْتَهُمْ كَفُّ الرَّدَى طَيُّ الرَّدَاءِ فَبَادُوا
عَفَتِ الْبُنَاةُ عَلَى اللَّيَالِي وَالْبَنَى وَتَلَاخَقَ الْأَمْجَادُ وَالْأَوْغَادُ

وله من قصيدة « شراب الأمانى لو علمت سراب » :

فِيَالَهُمْ مِنْ رَكْبٍ صَحْبٍ تَتَابَعُوا فِرَادَى وَهُمْ مُلْدُ الْغَصُونِ شَبَابَ
دَعَا بِهِمْ دَاعِي الرَّدَى فَكَأَنَّمَا تَبَارَتْ بِهِمْ خَيْلُ هُنَاكَ عَرَابَ
فَهَا هُمْ وَسَلَمَ الدَّهْرُ حَرْبَ كَأَنَّمَا جَثَا بَيْنَهُمْ طَعَنَ لَهُمْ وَضْرَابَ
فَحَتَّى مَتَى أَلْقَى الرِّزَايَا مُعِضَّةً كَمَا كَرَعَتْ بَيْنَ الضَّلُوعِ حَرَابَ
فَأَمَّا كَمَا تَعْدُو الضَّرَاغِمُ عَنُودَ وَإَمَّا كَمَا تَمْشِي الضَّرَاءُ ذُثَابَ

ومن شجى الرثاء قصيدة الرندى في رثاء الأندلس بعد استيلاء الأسبان

عليها ، وهى القصيدة المشهورة التى مطلعها : « لكل شيء إذا ما تم نقصان »
ويقول فيها :

يَا غَافِلًا وَلَهُ فِي الدَّهْرِ مَوْعِظَةٌ إِنْ كُنْتَ فِي سِنَةِ فَالدَّهْرِ يَقْظَانُ
وَمَا شِئًا مَرَحًا يَلْهِيهِ مَوْطِنُهُ أَبْعَدَ حِمَصٍ تَغْرِ الْمَرْءِ أَوْطَانُ
وَرَاتِعِينَ وَرَاءَ الْبَحْرِ فِي دَعَا لَهُمْ بِأَوْطَانِهِمْ عِزٌّ وَسُلْطَانُ
أَعْنَدَكُمْ نَبَأٌ عَنْ أَهْلِ أُنْدَلُسَ فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ الْقَوْمِ رَكْبَانُ

يا من لذلة قوم بعد عزهم أحال حالهم جور وطغيان
 بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
 يا رب أمّ وطفل حيل بينهما كما تُفَرِّقُ أرواح وأبدان

إلخ إلخ . ومن مشهور الرثاء في شعر المتأخرين قصيدة كمال الدين بن النبيه
 المصرى التى يقول فيها :

الناس للموت كخيل الطراد والسابق السابق منها الجواد
 والموت نُقَّادٌ على كفه جواهر يختار منها الجياد
 وهذا من الرثاء الذى تتفق فيه مغالطة العاطفة ومغالطة الصنعة .

الفكاهة في شعر العرب ^(١)

الفكاهة نوعان فكاهة خيالية وفكاهة لفظية والفكاهة الخيالية هي نوع من الخيال ومجالها حيث يتضاءل الجد فيه فهي الخيال في حال تبسطه ومن أجل ذلك كانت الفكاهة لا تستعمل في مكان الجد ولكن صعباً على من لم يتعود النقد أن يعرف الحد الفاصل بين مكان الجد ومكان الفكاهة فمن الناس من يعد في الجد ما يعده آخر في باب الفكاهة ومن الناس من يعد في الفكاهة ما يعده غيره في باب الجد ورجحان رأيه بقدر نصيبه من صحة الذوق وستبين ذلك في هذا المقال فمن أمثال الفكاهة الخيالية قول ابن الرومي في رجل أصلع .

يأخذ أعلا الوجه من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله

وليس كل خيال يجري بالفكاهة لأن الخيال إذا لم يكن وثاباً امتنعت عليه سبلها لأنها تخرج من التأليف بين الحقائق المتباعدة والصور المتناقضة وتباعد الصور ليس دليلاً على تباعد الصلة التي بينها فإن ابن الرومي في بيته السابق قد ألف بين صورتين متباعدتين وهما أن صلع الرجل جعل وجهه مغيراً على رأسه آخذاً منه وأن تزايد نهار الصيف يُجَنِّي من تناقص ليله ووجه الشبه الذي بين الصورتين قريب متين وإني لأحسب أن تطير ابن الرومي بينه وبين فكاهته الخيالية سبب لأن التطير يبعثه سوء الظن وسوء الظن يدعو المرء إلى اتهام الناس بمعادة صاحبه وذلك يبعث على تطلب السبيل الدمث لهجائهم وانتقاصهم . وأوجع الهجاء ما جعل المهجو ضحكة في أفواه الناس فأكبر ظني أن سوء رأى ابن الرومي في الناس هو الذي استقدح الفكاهة في خياله وهذا بيرون كان مر النفس فاتخذ من مرارة نفسه رائداً إلى الفكاهة اللاذعة انظر كيف يصف وزيراً من وزراء الانجليز حيث يقول فلان ذو الذهن الخصى فإن تشبيهه الغباوة بالخصي من الفكاهة الخيالية وهذا المتنبي قد سما بنفسه بين الثريا والسماك ومن كان يربأ بنفسه أن يُعَدَّ في الناس عرف من أين تؤتى الفكاهة اللاذعة انظر إلى قوله في رجل أعور :

(١) نشر بمجلة البيان ، العدد ٨ ، السنة الأولى ، ربيع الأول سنة ١٣٣٠ هـ (فبراير ١٩١٢ م) .

فيا ابن كروسر يا نصف أعمى وإن تفخر فيا نصف البصير

ومرارة النفس تزيد الفكاهة قوة ورسوخا في النفس غير أنها تلبسها زياً أسود يلائم زيتها وتستخدمها في إنفاذ أمرها وتقريب غرضها أما إذا لم تجد الفكاهة في النفس ما يرنق صفوها ويمر مذاقها كانت كالنهر حين تدفقه بين الصخور صافي الماء عذبه هذا جوزيف أدسون لطيف الفكاهة شريفها مهما غلا في نقد العادات والأخلاق ومن أجل ذلك كان خليقاً أن يحمل النفس على الخروج عما يشوبها من غير أن يضيع ثقتها بضميرها ومن غير أن يثير عداة الناس ويحرك بغضهم باللفظ الجارح فقد كانت الفكاهة في لسان سويفت أو كارليل كالسيف في يد الجلّوذ أو السوط في يد الجلاد .

وأحسن الفكاهة ما صدر عن رغبة في إصلاح فاسد وتقويم معوج من العادات والأخلاق والعرب تستعمل الفكاهة في الهجاء والسخر والتعجيز والوصف انظر إلى قول المتنبي في رجلين قتلا جرذا وأبرزاه ليعجب الناس من كبره .

وأيهما كان من خلفه فإن به عضة في الذنب

انظر إلى الصورة الخيالية المضحكة التي في هذا البيت صورة شجار بين رجلين وبين جرذ وانظر كيف ادعى الشاعر أن أحدهما قد عض الجرذ في ذنبه ولكن المتنبي يمزج الهجاء بالفحش في كثير من شعره ومن الفكاهة ما كان يستعمله الشاعر في المدح تغالياً في إعلاء ممدوحه وتكثيراً لما يستخرجه من المعاني وأكثر هذا النوع سخيف لأنه أقرب إلى الذم منه إلى المدح وإنى ما قرأت قوله :

خفت إن صرت في يمينك أن تأخذني في هباتك الأقوام

إلا تملكني الضحك من ذلك المنظر الغريب المودع في هذا البيت وذكرت ما يشبهه مما يحدث يوم الجمعة عند باب السيدة زينب حيث يتسابق الفقراء والمساكين إلى التمر والكعك والفطير الذي تفرقه النساء صدقة وقد بلغني أن امرأة وضعت حذاءها في ناحية فأخذها أحد المساكين حاسباً أنه من هباتها وقد خاف المتنبي إن صار على قرب من ذلك الكريم أن تأخذه الأقوام حاسبة أنه عبد من

هباته ومثل هذا قوله :

وقلبك في الدنيا ولو دخلت بنا وبالجن فيه مادرت كيف ترجع

أليس هذا أقرب إلى السخر والتهكم منه إلى المدح ولكن هكذا الشاعر القدير إذا لم يراقب خياله أقى بالمستهجن ولا يحسب أن المتنبي أراد أن يمزج بمعاني المدح شيئاً من الفكاهة وهو خروج بالمدح عن حده وليس هذا من أدب المدح وإنما دفعه إلى مثل هذا الغلو وحب الابتداع وهما شيخان مقرونان في قرن .

أما شعراء الجاهلية وصدر الإسلام فإنهم وجدوا الفحش وهُجر الكلام أنكى وأوجع وقد يمزجون به شيئاً من الفكاهة هذا سبيلهم في الهجاء إلا في القليل النادر وأما شعراء الدولة العباسية فإنهم يستعملون الفحش في الهجاء أيضاً ولكنهم تفتنوا في استعمال الفكاهة اللاذعة وشعراء الجاهلية وصدر الإسلام يستعملون الفكاهة في السخر والتعجيز أكثر من استعمالهم إياها في الهجاء أو الوصف هم يستعملونها كثيراً في الوصف إذا أريد منه السخر ومن استعمل الفكاهة من الشعراء العباسيين فأجاد أبو نواس ومن بديع شعره في هذا الباب قوله في البخيل :

خبز الخصيب معلق بالكوكب يحمى بكل مثقف ومشطب
جعل الطعام على بنيه محرماً قوتا وحلله لمن لم يسغب

انظر إلى قوله (وحلله لمن لم يسغب)

ويعجبني في هذا الباب قول حافظ إبراهيم في الفقير .
ويخال الرغبة في البعد بديراً ويظن اللحوم صيداً حراماً

وقال أبو نواس :

رأيت الفضل مكتئباً يناغي الخبز والسمكا
فأسبل دمعته لما رآني قادماً وبكى
فلما أن حلفت له بأني صائم ضحكا

إذا كان لأهل الفضل والأخلاق الحميدة أن يسيحوا الهجاء فلا أكثر من هذا والشاعر خليق أن ينزه منطقته عن مثل ما وقع بين الفرزدق وجريير والأخطل

والبعيث أو مثل ما وقع بين بشار وحمّاد عجرد أو مثل أهاجى ابن الرومى فى
بوران أو هجاء المتنبى لابن كيغلغ وماذا يرى الأديب مما تسيغه النفس المهذبة
فى هجاء البحترى للمستعين حيث يقول :

وما كانت ثياب الملك تخشى جريرة بائلى فهى خارى
أو قول الأخطل :

قوم إذا استنبح الأضياف كلهم قالوا لأهمهم بولى على النار
أو قول المتنبى :

يحمى ابن كيغلغ الطريق وعرسه ما بين رجلها الطريق الأعظم
إلى آخر الهجاء .

ومن استعمل الفكاهة فى الهجاء من غير أن يبيح حرمة الأدب أبو العلاء
المعرى حيث يقول :

رويدك أيها العاوى ورأى لتخبرنى متى نطق الجماد
وأبو تمام حيث يقول :

ألصقت قلبك من بغضى على حرق أضرم من حركات الهجر للجسد
أنخفت جسمك حتى لو هممت بأن ألهو بصفعك يوماً لم تجدك يدي

ومن بديع ما سمعت من الفكاهة قول أبى نواس وكان قد حبسه الفضل
ابن الربيع فى أيام الأمين حتى أشاع أهل خراسان أنه يصطفى ماجناً خليعاً ويقضى
معه ليله ونهاره فأقام أبو نواس فى السجن زمناً ثم استتابه الفضل فتاب فعفا عنه
فبعث إليه بهذه الأبيات :

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النسـ	ك وعودتنيه والخير عاده
فارعوى باطل وأقصر حبلى	وتبدلت عفة وزهاده
المسايح فى ذراعى والمصـ	جف فى كبتى مكان القلاده
وإذا شئت أن ترى طرفه تعـ	جب منها مليحة مستفاده
فادع لى لا عدمت تقويم مثلى	وتفطن لموضع السجاده
تر إثراً من الصلاة بوجهى	توقن النفس أنه من عباده

لو رآها بعض المرائين يوما لا شترها يعدها للشهادة
ولقد طال ما شقيت ولكن أدركنى على يدك السعادة

وهناك نوع من أنواع الفكاهة يسميه الإفرنج الفكاهة اللفظية وشيخ هذه
الصناعة (فولتير) ورب الفكاهة الخيالية عندهم هو جان بول رختر الألماني ،
أما شكسبير فنصيبه من النوعين أوفر نصيب والعرب تستعمل الفكاهة اللفظية
ولكنهم قد يغالون فيها فتجىء سمجة والفكاهة اللفظية مثل قول المتنبي :
كأن السُماني إذا ما رأتك تصيِّدها تشهى أن تصادا

ويعجبني منه استخدامه هذه الفكاهة اللفظية في الاعتذار حين عاتبه بعض
إخوانه لأنه لم يرد سلامه فقال :

أنا عاتب لتعجبك * متعجب لتعجبك
إذ كنت حين لقيتني * متوجعاً لتغيبك
فشغلت عن رد السلا * م وكان شغلي عنك بك

فهذا الاعتذار مغالطة ولكنه مغالطة مليحة فهو من الفكاهة اللفظية لأن
الصلة التي بين شغله بالتوجع لغياب صديقه وشغله عنه صلة توهم وليست مثل
الصلة التي بين أخذ أعلا وجه الأصلع من رأسه وبين أخذ نهار الصيف من ليله
في بيت الرومي فإنك إذا نظرت إلى الصورة المودعة في هذا البيت أى صورة
وجه الأصلع ورأسه ثم رأيت كيف يجنى تزايد يوم الصيف من تناقص ليله علمت
كيف تميز الفكاهة الخيالية من الفكاهة اللفظية التي أصلها المغالطة في مثل اعتذار
المتنبي والفكاهة الخيالية يلتذها المرء بخياله والفكاهة اللفظية يلتذها المرء بملكة
المنطق لأنها مغالطة منطقية كأن يريد صاحبك أن يبرهن لك مزاحاً باضطراب
في المنطق أن شيئاً خطأ هو رأس الصواب أو أن شيئاً صواباً هو رأس الخطأ
واعذار المتنبي هو مثل من أمثال ذلك . أما الفكاهة الخيالية فهي التي تعرض
عليك صورة من صور الخيال يسم لها القلب وتحسب أن البيت الذي يحتويها
صورة لا بيت شعر أما الفكاهة اللفظية فهي مغالطة يسم لها الذهن فإنك إذا
قرأت اعتذار المتنبي أعجبتك مهارته ولطف تخيله وهذا شيء مصدره الذهن وكذلك

إذا عرض عليك قوله :

كأن السمانى إذا ما رأتك تصيدها تشتبى أن تصاداً

ولكن إذا عرض عليك قول ابن الرومى فى الرجل الأصلع الذى يأخذ وجهه من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله ألاح لك بصورة فكاهية وقد تكون الفكاهة اللفظية أجلب للضحك من الفكاهة الخيالية لأن المغالطة عند العامة هى مصدر ضحكهم .

وليس لنوعى الفكاهة حدود معينة فلا تقدر أن تقول هذا حد الفكاهة الخيالية وهذا حد الفكاهة اللفظية فإنهما قد يمتزجان انظر إلى قول الرومى فى رجل بخيل :

فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

هذا البيت يلح لك بصورة فكاهية صورة رجل من بخله يتنفس من منخر واحد ولكنها مغالطة مليحة لأن البخيل مهما كان بخيلاً لا يجد نفعاً له فى أن يتنفس من منخر واحد حتى لو استطاع ذلك ولكن لا مغالطة فى تشبيه تطاول وجه الأصلع على رأسه بتزايد نهار الصيف وتناقص ليله لأنه ليس معنى التشبيه أن المشبه والمشبّه به سواء فإذا نظرت إلى قول ابن الرومى فى البخيل وجدت الفكاهة اللفظية ممتزجة بالفكاهة الخيالية وذلك أيضاً كائن فى بيت أئى العلاء :

رويدك أيها العاوى ورأى لتخبرنى متى نطق الجماد

على أن أكثر الفكاهة اللفظية يجيء ممزوجاً بشيء من الفكاهة الخيالية وبقدر نصيبه منها يكون نصيبه من روح الشعر وشعراء الجاهلية وصدر الإسلام يستعملون الفكاهة الخيالية أكثر من الفكاهة اللفظية وهذا دليل على صحة أذواقهم ولكن شعراء الدولة العباسية قد أكثروا من استعمال الفكاهة اللفظية لأنهم تفننوا فى أنواع المغالطة المنطقية وقد يجيئون بها مليحة وقد يجيئون بها سمجة .

ولكن أكبر عيوب شعرائنا هو استخدامهم الفكاهة فى موضع الجد وهم لا يعرفون أنها فكاهة وقد ذكرت من أمثال ذلك استخدام المتنبى الفكاهة فى

المدح وهو لا يعرف أنها فكاهة وأقبح من هذا استخدامهم الفكاهة في الرثاء مثل قول إمام العبد في قصيدة يرثي بها الشيخ محمدا عبده ما معناه أنه لبس سواد جلده حداداً عليه قبل مماته وإمام العبد لم يرد أن يمزح فيخالف أدب الرثاء ولكنه أتى بالمزح من غير قصد وعمد لأنه تعود قراءة أمثال هذا المزح في الرثاء والمتنبى إذا استخدم المغالاة في الرثاء حسبت أنه يمزح مع الميت أو أنه يسخر منه ويهزأ به ومن أمثال المزح في الرثاء قول شاعر يرثي إماما العبد ويقول له في رثائه أعرنى سواد جلدك كى ألبسه حداداً عليك هذا أقرب إلى باب السخر والتهكم واستعمال المزح أو السخر في الرثاء دليل على سقم في ذوق الشاعر وشعراء الجاهلية وصدر الإسلام كانوا أصبح أذواقاً من العباسيين لأنهم لم يستخدموا الفكاهة في موضع الجد من مدح أو رثاء أو حكمة إلا أن يجيئوا بها على سبيل التهكم أو السخر أو التعجيز وهم يريدون ذلك . هذا مذهبهم إلا في القليل النادر ولكن بدأت الشعراء تستخدم الفكاهة في مواضع الجد وهم لا يعرفون أنها فكاهة في أواخر الدولة الأموية ثم في أيام الدولة العباسية وما زالوا يغالون في ذلك حتى جاؤا بالغث المستهجن في باب المدح والرثاء والحكم وشعراء هذا العصر يتابعونهم في سقم ذوقهم .

فخليق بنا أن نلتمس سلامة الذوق في شعر شعراء الجاهلية وصدر الإسلام وأن نضع المعنى موضعه كما نلتمس حسن الابتداع ولطف التوليد في شعر شعراء الدولة العباسية .